

التفسير المحرر 8-10108-1.0

ولو أَجَبْنَا طَلَبَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ، فَرَأَوْا الْمَلَائِكَةَ عِيَانًا، وَشَهِدَتْ لَهُمْ بِصِدْقِ الرَّسُولِ، وَأَخْبَيْنَا لَهُمُ الْمَوْتَى؛ فَأَخْبَرُوهُمْ بِصِدْقِهِ، وَجَمَعْنَا لَهُمْ كُلَّ الْأَشْيَاءِ أَمَامَهُمْ، أَوْ جَمَعْنَاهَا لَهُمْ فُوجًا فُوجًا؛ لِنُخْبِرَهُمْ مَبَاشَرَةً بِصِدْقِ الرَّسُولِ، لِمَا آمَنُوا، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ذَلِكَ؛ لِنَعْتُنَّهُمْ، وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ أَنَّهُ لَوْ أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَا اقْتَرَحُوهُ لَمْ يُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. فَمَنْ جَهِلَهُمْ أَنَّهُمْ رَتَّبُوا إِيْمَانَهُمْ عَلَى مَجَرَّدِ إِيْتْيَانِ الْآيَاتِ، وَإِنَّمَا الْعَقْلُ وَالْعِلْمُ اتِّبَاعُ الْحَقِّ، بِالطَّرْقِ الَّتِي بَيَّنَّهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَكَمَا ابْتَلَيْنَاكَ -يَا مُحَمَّدٌ- بِأَنْ جَعَلْنَا لَكَ أَعْدَاءَ مِنْ مَرَدَّةِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَكَذَلِكَ ابْتَلَيْنَا الْأَنْبِيَاءَ السَّابِقِينَ، فَجَعَلْنَا لَهُمْ أَعْدَاءَ؛ مِنْ مَرَدَّةِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ؛ فَهَذِهِ سُنَّتُنَا، يُوسُّوسُ شَيَاطِينُ الْجِنِّ إِلَى شَيَاطِينِ الْإِنْسِ بِالْقَوْلِ الْبَاطِلِ الْمُرَيِّنِ، فَيُؤْذِنُونَ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ بِالْجِدَالِ، وَيُضِلُّونَ بِهِ النَّاسَ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لَمَنَعَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ قَدَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَدَعِ الَّذِينَ يُجَادِلُونَكَ بِالْبَاطِلِ، وَدَعْ عَنْكَ مَا يَفْتَرُونَهُ. لِنَمِيلَ إِلَى ذَلِكَ الْكَلَامِ الْمُزَخْرَفِ أَفْعَدَةِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ؛ وَيَرْضَوهُ، وَيَكْتَسِبُوا مَا هُمْ مُكْتَسِبُونَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي.

قُلْ -يَا مُحَمَّدٌ- لِأَوْلَائِكَ الْمَشْرِكِينَ: أَضِلُّ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ؛ فَأَجْعَلْ حَاكِمًا غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى؟ إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي ذَلِكَ؛ فَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مَبِينًا مَا تَخْتَصِمُونَ فِيهِ، مُوضِّحًا الْعُقَائِدَ وَالْأَحْكَامَ، وَالْيَهُودَ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ أُعْطُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، يَعْلَمُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَ مِنْ رَبِّكَ -يَا مُحَمَّدٌ- مَتَلَبِّسًا بِالْحَقِّ، فَكُلُّهُ حَقٌّ وَهُدًى، وَمَا دَامَتْ تِلْكَ صِفَتُهُ؛ فَلَا تَسْكَنْ فِيهِ.

وَكَمَلْتُ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا فِي جَمِيعِ الْأَخْبَارِ، وَعَدَلًا فِي جَمِيعِ الْأَحْكَامِ، لَا أَحَدٌ يُمَكِّنُهُ تَغْيِيرُ كَلِمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا الْإِتْيَانُ بِأَحْسَنَ مِنْهَا، وَهُوَ السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، الْعَلِيمُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ.

وَأِنْ تُطِيعَ أَكْثَرَ أَهْلِ الْأَرْضِ -يَا مُحَمَّدَ- يَصُدُّوكَ عَنِ الْحَقِّ، وَهُمْ فِي ضَلَالٍ لِيَسُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَهُمْ يَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَيَقُولُونَ مَا لَا يَعْلَمُونَ.

إِنَّ رَبَّكَ -يَا مُحَمَّدَ- أَعْلَمُ مِنْكَ وَمِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ بِمَنْ يَنْحَرِفُ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، فَيُبَيِّسِرُهُ لَذَلِكَ، وَبِمَنْ يَسِيرُ عَلَى اسْتِقَامَةٍ، فَيُبَيِّسِرُهُ لَذَلِكَ.

وَمَا دَامَ أَنَّهُ ثَبَتَ بِمَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ مِنَ الْآيَاتِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ وَحُكْمِهِ فَكُلُوا إِذِنْ مِنَ الذَّبَائِحِ الَّتِي ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُحَلَّلِ أَكْلُهَا، إِنْ كُنْتُمْ بِحُجَجِ اللَّهِ وَأَدِلَّتِهِ مُؤْمِنِينَ.

وَأَيُّ شَيْءٍ يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَقَدْ أَوْضَحَ اللَّهُ تَعَالَى لَكُمْ مَا يَحْرُمُ أَكْلُهُ، فَلَمْ يَبْقَ فِي ذَلِكَ إِشْكَالٌ، وَلَكِنْ يُبَاحُ لَكُمْ تَنَاوُلُ الْحَرَامِ إِذَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَحْرِفُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَتْبَاعَهُمْ عَنِ الْحَقِّ، بِسَبَبِ اتِّبَاعِ الْهَوَى بِالْبَاطِلِ، إِنَّ رَبَّكَ -يَا مُحَمَّدَ- هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ تَعَدَّوْا حُدُودَهُ، فَتَجَاوَزُوا الْحَلَالَ إِلَى الْحَرَامِ، وَلَنْ يُفْلِتُوا مِنْ عِقَابِهِ.

وَدَعُوا -أَيُّهَا النَّاسُ- جَمِيعَ الْمَعَاصِي؛ فَلَا تَرْتَكِبُوهَا فِي السِّرِّ وَلَا فِي الْعِلَانِيَةِ، وَلَا تَقْتَرِفُوهَا بِجَوَارِحِكُمْ وَلَا بِقُلُوبِكُمْ، إِنَّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِمَا نَهَاها اللَّهُ عَنْهُ؛ سَيُعَاقَبُونَ عَلَيْهِ.

ولا تأكلوا - أيُّها المؤمنونَ - ممَّا لم يُذَبَّحْ على اسمِ الله تعالى؛ فإنَّ أكلَ ذلك خروجٌ عن الحقِّ وطاعةِ الله عزَّ وجلَّ، وإنَّ الشَّيَاطِينَ يُوسُّوسُونَ إلى المُشْرِكِينَ؛ لِيُجَادِلُوكُمْ بِشَبْهِ سَقِيمَةٍ؛ لِإِقْنَاعِكُمْ بِالْبَاطِلِ، وَمِنْ ذَلِكَ تَحْرِيمُ أَكْلِ الْمَيْتَةِ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ فِي اسْتِحْلَالِ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ؛ فَقَدْ صِرْتُمْ مِثْلَهُمْ مُشْرِكِينَ.

هَلْ مَنْ أَحْيَيْنَا قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ، وَاتَّبَعَ الْقُرْآنَ، فَصَارَ يَرَى الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، وَيَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ فِي النُّورِ، مُتَبَصِّرًا، مُهْتَدِيًا، يَسْتَوِي بَيْنَهُمَا فِي ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ، قَدْ التَّبَسَّطَ عَلَيْهِ الطَّرْقُ، فَلَا يَدْرِي أَيَّ طَرِيقٍ يَأْخُذُ؟!

وَكَمَا حُسِّنَ لَهُوْلَاءِ الْكَفَّارِ - الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي أَكْلِ الْحَرَامِ - سَوْءُ أَعْمَالِهِمْ، كَذَلِكَ حُسِّنَ لِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، مَا يَعْمَلُونَهُ.

وَكَمَا وَقَعَ مِنْ رُؤْسَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي مَكَّةَ مِنَ الصَّدِّ عَنِ الْحَقِّ كَذَلِكَ صَيَّرْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ رُؤْسَاءَ مِنَ الْمَجْرِمِينَ؛ لِيَمْكُرُوا فِيهَا، بِالْدَّعْوَةِ إِلَى الضَّلَالِ وَالصَّدِّ عَنِ الْحَقِّ، وَمَا يَعُودُ وَبَالَ مَكْرِهِمْ إِلَّا عَلَيْهِمْ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِذَلِكَ، وَلَا بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ.

وَإِذَا جَاءَتْ هَؤُلَاءِ الْمَجْرِمِينَ حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ مِنَ اللَّهِ، عَلَى صَدَقِ الرَّسُولِ، قَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ بِذَلِكَ؛ حَتَّى يُوحَى إِلَيْنَا كَمَا يُوحَى إِلَى الرَّسُلِ، وَنُعْطَى مِنَ الْمُعْجَزَاتِ مِثْلَهُمْ! فَردَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِمَوْضِعِ رِسَالَتِهِ، وَمَنْ يَصْلُحُ لَهَا، وَسَيُنَالُ الَّذِينَ اكْتَسَبُوا الْإِثْمَ بِشُرْكَهِمْ بِاللَّهِ، وَعِبَادَتِهِمْ غَيْرَهُ ذُلٌّ وَهَوَانٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ لِمَكْرِهِمْ.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ تَعَالَى هِدَايَتَهُ لِلْحَقِّ؛ يَفْسَحْ صَدْرَهُ، فَيَتَّسِعْ لِقَبُولِهِ،
وَمَنْ يُرِدْ إِضْلَالَهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ فِي أَشَدِّ مَا يَكُونُ مِنَ الضِّيقِ،
فهذه حاله في عَدَمِ تَقَبُّلِ الْإِيمَانِ وَثِقَلِهِ عَلَيْهِ؛ مِثْلَ صَعُوبَةِ تَكْلُفِ
الصُّعُودِ فِي السَّمَاءِ. وَكَمَا يَجْعَلُ اللَّهُ تَعَالَى صَدْرَ مَنْ أَرَادَ إِضْلَالَ
ضَيْقًا حَرَجًا، كَذَلِكَ يَسْلُطُ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَمْثَالِهِ، مِمَّنْ أَبِي
الْحَقِّ.

وهذا الَّذِي بَيَّنَّا لَكَ -يَا مُحَمَّدُ- فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا، هُوَ
طَرِيقُ رَبِّكَ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ؛ فَاتَّبَعْتُ عَلَيْهِ، قَدْ بَيَّنَّا الْأَدْلَةَ
عَلَى صَحَّةِ ذَلِكَ لِمَنْ يَتَذَكَّرُونَ الْحَقَّ فَيَنْتَفِعُونَ بِالدِّكْرِ.
لهؤلاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ، الْجَنَّةَ السَّالِمَةَ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ،
وَاللَّهُ تَعَالَى نَاصِرُهُمْ، وَحَافِظُهُمْ؛ جَزَاءً لَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ
الصَّالِحَةِ.

وَادْكُرْ -يَا مُحَمَّدُ- يَوْمَ يَحْشُرُ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا أَوْلِيَّكَ الْمَشْرِكِينَ
مَعَ أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْجَنِّ، ثُمَّ يَقُولُ مُوَبِّخًا لِلْجَنِّ: قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنْ
إِضْلَالِ الْإِنْسِ، فَأَضَلُّتُمْ مِنْهُمْ أَعْدَادًا كَبِيرَةً، فَيَجِيبُ الْجَنُّ: يَا
رَبَّنَا، تَمَنَّعَ وَانْتَفَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ إِلَى أَنْ بَلَغْنَا الْوَقْتَ الْمَضْرُوبَ
لِمَوْتِنَا، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُمْ: النَّارُ هِيَ الْمَحَلُّ الَّذِي تُقِيمُونَ فِيهِ أَبَدًا، إِلَّا
مَا شَاءَ اللَّهُ، إِنَّ رَبَّكَ -يَا مُحَمَّدُ- حَكِيمٌ، فَلَا يُعَذِّبُ إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ،
وَقَدْ وَسَّعَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْءٍ؛ فَيَعْلَمُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ.

وَكَمَا جَعَلْنَا بَعْضَ أَوْلِيَّكَ الْمَشْرِكِينَ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَوْلِيَاءَ،
كَذَلِكَ نُوَلِّي كُلَّ ظَالِمٍ ظَالِمًا مِثْلَهُ؛ بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ مِنَ
السَّيِّئَاتِ.

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَئِذٍ: أَلَمْ يَأْتِكُمْ أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ رِسْلٌ مِنْكُمْ
يَقْرَأُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي الَّتِي أَنْزَلْتُ، وَيَحْذِرُونَكُمْ الْأَهْوَالَ وَالْعَذَابَ

الواقع في يومكم هذا؟ قالوا: نقرُّ بأنَّ رُسْلَكَ قد بَلَغْتَ ذلك، ولكننا كَذَبْنَاهم! لقد غَرَّتْ أولئك المشركين وأولياءهم من الجنِّ زينةُ الدنيا، فألْهَتْهم عن العَمَلِ لِلآخِرَةِ. وشَهِدَ هؤلاء المشركونَ في يومِ القيامة أَنهم كانوا في الدنيا كافرينَ باللهِ تعالى وِرْسُلِهِ؛ وبذلك تَتِمَّ حُجَّةُ الله عليهم بإقرارهم فيُعاقَبونَ.

ذلك الإنذارُ والإعذارُ على ألسنةِ الرُّسُلِ في الدنيا واقعٌ؛ لأنَّ ربَّكَ -يا مُحَمَّد- لا يُهْلِكُ القُرَى بكُفْرِها ومعاصيها مع غفلة أهلها، فلا بُدَّ من إزالةِ العَفْلةِ أَوَّلًا بإرسالِ الرُّسُلِ، وإنزالِ الكُتُبِ.

ولكُلِّ النَّاسِ: كافرينَ ومؤمنينَ، طائعينَ وعاصينَ؛ مراتبٌ في الآخرة، ينزلونها وفق أعمالهم، وربك -يا مُحَمَّد- لا تخفى عليه أعمالهم، وسيُجازيهم بها يومَ القيامةِ.

وربُّكَ -يا مُحَمَّد- غنيٌّ عن عبادِهِ، وعن أعمالِهِم؛ فلا تنفعُهُ طاعتهم، ولا تضرُّهُ معصيتهم، وإنَّ يَشَأْ يُذْهِبْكم -أيُّها النَّاسُ- إذا خالفْتُم أمرَهُ، وَيَسْتَخْلِفْ آخِرِينَ مِنْ بَعْدِكُمْ؛ يعملونَ بطاعته، فهو قادرٌ على ذلك سُبْحانَهُ، فكما أوجَدَكُم مِنْ نَسْلِ آخِرِينَ كانوا قَبْلُكم؛ وأذْهَبَ القرونَ الأولى، وأتى بالتي بَعْدَها؛ فهو قادرٌ أيضًا على إذهابِكُمْ، والإتيانِ بآخرينَ.

إنَّ الَّذِي يُوعِدُكم به ربُّكم -أيُّها المشركون- مِنَ العذابِ؛ واقعٌ بكم لا مَحالة، ولن تُعْجزوا اللهَ تعالى هَرَبًا مِنْهُ؛ فَتَقُوْهُ، بل أنْتُمْ في قَبْضَتِهِ، وتحتَ قَهْرِهِ.

قل -يا مُحَمَّد- لِمُشْرِكِي قُرَيْشٍ إذا دَعَوْتَهُمْ إِلَى اللَّهِ واستَمَرُّوا على شِرْكِهِم: اعملوا على حَالَتِكُم الَّتِي رَضِيتُمُوهَا لأنفُسِكُمْ؛ فَإِنِّي عامِلٌ ما أَمَرَنِي به رَبِّي، ومستمرٌّ على طريقي، فسوف

تَعْلَمُونَ عِنْدَ نَزُولِ عَذَابِكُمْ: أَتَيْنَاكَ الْمَحِقَّ فِي عَمَلِهِ، فَتَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ الْحَسَنَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِنَّهُ لَا يَنْجُ وَلَا يَفُوزُ عِنْدَ اللَّهِ، مَنْ عَمِلَ بِخِلَافِ مَا أَمَرَهُ بِهِ.

وَجَعَلَ الْمُشْرِكُونَ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ مِنَ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ وَالْأَنْعَامِ جُزْءًا لَهُ سُبْحَانَهُ، وَجَعَلُوا لَشُرَكَائِهِمْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى جُزْءًا آخَرَ، وَالْحَالُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَوْجَدَهُ رِزْقًا لَهُمْ، لَا أَوْلَئِكَ الشُّرَكَاءُ، فَإِنْ وَصَلَ شَيْءٌ مِمَّا جَعَلُوهُ لَهُمْ إِلَى مَا جَعَلُوهُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ؛ رَدُّهُ إِلَى مَحَلِّهِ مَعَ نَصِيبِ أَوْلِيَائِهِمْ، فَحَفِظُوهُ، وَإِنْ اخْتَلَطَ شَيْءٌ مِمَّا جَعَلُوهُ لِلَّهِ تَعَالَى بِمَا جَعَلُوهُ لِأَلِهَتِهِمْ؛ لَمْ يَرُدُّهُ، وَقَدْ أَسَاءُوا فِي حُكْمِهِمْ هَذَا.

وَكَمَا حَسَنَتِ الشَّيَاطِينُ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَجْعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا، كَذَلِكَ حَسَنُوا لَهُمْ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ خَشْيَةَ الْفَقْرِ، وَوَادَ الْبَنَاتِ خَشْيَةَ الْعَارِ، وَكُلَّ ذَلِكَ مِنْ خُدْعِ الشَّيَاطِينِ، الَّذِينَ يُرِيدُونَ إِهْلَاكَهُمْ، وَأَنْ يَخْلُطُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ فَيَلْتَبِسَ، فَيُضِلُّوا! وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمَنَعَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، مَنْ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِحَسَبِ مَا اقْتَضَتْهُ حُكْمَتُهُ خَلَّى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَخَذَلَهُمْ عَنِ الْحَقِّ، فَدَعَاهُمْ -يَا مُحَمَّدُ- وَمَا يَتَّقُولُونَهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْكُذْبِ، وَلَا تَحَزَنُ عَلَيْهِمْ؛ فَلَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ تَعَالَى شَيْئًا؛ وَسَيَحْكُمُ بَيْنَكُمْ.

وَقَالَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ: هَذِهِ الْأَنْعَامُ وَذَلِكَ الزَّرْعُ حَرَامٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ أَحَدٌ، إِلَّا مَنْ أَذِنَّا لَهُ، وَفَقَّا لِأَهْوَائِهِمْ دُونَ دَلِيلٍ، وَحَرَّمُوا رُكُوبَ ظُهُورِ بَعْضِ أَنْعَامِهِمْ، وَحَرَّمُوا مِنْهَا صِنْفًا لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ رَكَبُوهَا، أَوْ حَلَبُوهَا أَوْ ذَبَحُوهَا، وَهَذَا

كَذِبُ مِنْهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ الَّذِي لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَسُيْجَازِيَهُمْ عَلَى افْتِرَائِهِمْ هَذَا.

وَقَالَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ أَيْضًا: جَمِيعُ مَا فِي بُطُونِ تِلْكَ الْأَنْعَامِ مِنْ لَبَنٍ وَجَنِينٍ، فَهُوَ حَلَالٌ لِدُكُورِنَا وَحَرَامٌ عَلَى إِنَاثِنَا، إِذَا خَرَجَتْ الْأَجْنَةُ أَحْيَاءً، وَإِنْ وُلِدَ مَا فِي بُطُونِ تِلْكَ الْأَنْعَامِ مَيِّتًا فَهُوَ حَلَالٌ لِلدُّكُورِ وَالْإِنَاثِ، وَسُيْجَازِي اللَّهُ تَعَالَى هَؤُلَاءِ الْمَفْتَرِينَ عَلَيْهِ الْكَذِبَ حِينَ وَصَفُوا مَا أَحَلَّهُ بِأَنَّهُ حَرَامٌ، وَمَا حَرَّمَهُ بِأَنَّهُ حَلَالٌ، وَنَسَبُوا ذَلِكَ إِلَيْهِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكِيمٌ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرُّعِهِ وَقَدَرِهِ، عَلِيمٌ بِأَعْمَالِ عِبَادِهِ.

قَدْ خَسِرَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ عَنْ جَهْلِ وَنَقْصِ عَقْلِ، وَحَرَّمُوا مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَنْعَامِهِمْ فَجَعَلَهُمْ رِزْقًا لَهُمْ؛ خَسِرُوا أَوْلَادَهُمْ بِقَتْلِهِمْ، وَضَيَّقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ بِمَا حَرَّمُوا مِنْ أَشْيَاءٍ ابْتَدَعُوهَا، وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ فِي شَرِّ الْمَنَازِلِ بِكَذِبِهِمْ عَلَى اللَّهِ، لَقَدْ انْحَرَفُوا عَنِ الْحَقِّ، وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهِ.

وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي أَوْجَدَ الْبَسَاتِينَ الَّتِي تَحْوِي أَنْوَاعًا مِنَ الْأَشْجَارِ، وَالنَّبَاتَاتِ، سَوَاءً كَانَتْ ذَاتَ عُرُوشٍ تَنْتَشِرُ عَلَيْهَا الْأَشْجَارُ، وَلَهَا أَعْمَدَةٌ تَرْفَعُهَا، أَوْ كَانَتْ خَالِيَةً مِنْ ذَلِكَ فَيُنْبِتُهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى سَاقٍ، أَوْ تَنْفَرِشُ مِنْبَسِطَةً عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَخَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّخْلَ وَالزَّرْعَ، وَجَعَلَ مَا يُؤْكَلُ مِنْ ثِمَارِهِ وَخُبُوبِهِ؛ أَنْوَاعًا مُخْتَلَفَةً، وَخَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا فِي مَنَظَرِ شَجَرِهِ وَوَرَقِهِ، وَغَيْرِ مُتَشَابِهٍ فِي شَكْلِ ثَمَرِهِ وَطَعْمِهِ، وَلَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالزَّرُوعِ عِنْدَ ظُهُورِهَا، وَأَعْطُوا زَكَاةَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَقْتَ حَصَادِهَا، وَلَا تَتَجَاوَزُوا حَدًّا

الاعتدال في الأكل؛ فالله تعالى لا يحب من كان مُسرفاً في ذلك وفي غيره.

وخلق الله عز وجل من الأنعام ما هو مهياً للحمل عليه؛ كبره وارتفاعه، كالإبل، ومنها ما هو مهياً لغير الحمل؛ لصغره وقُزبه من الأرض، كالغنم، فكلوا ممّا أباحه الله تعالى لكم من الثمار والزروع والأنعام؛ فقد خلقها الله تعالى كلها وجعلها رزقاً لكم، ولا تسلكوا طرق الشيطان، التي منها تحريم بعض ما رزقكم الله عز وجل؛ فالشيطان لكم عدو بين ظاهر العداوة.

وخلق الله تعالى من الأنعام ثمانية أزواج، ومنها الذكر والأنثى من الضأن والمعز، فمن الضأن الكبش والشعجة، ومن المعز النيس والعنر، فقل -يا محمد- للذين حرّموا ما رزقهم الله تعالى: أحرّم الله ذكر المعز والضأن؟ فليس هذا قولكم، أم حرّم أنثيهم؟ فليس هذا بقولكم أيضاً. فلستم تقولون بتحريم الذكور الخالص، ولا الإناث الخالص من الضأن والمعز. أم تحرّمون ما اشتملت عليه أرحام أنثى الضأن وأنثى المعز، من غير فرق بين ذكر وأنثى؟ فلستم تقولون أيضاً بهذا. فإذا كنتم لا تقولون بأحد تلك الأقوال الثلاثة؛ فإنّ تفريقكم بين بعض الذكور وبعض الإناث، وبعض ما في بطون الأنعام بأنّ تحلوا بعضه، وتحرّموا بعضه؛ تفريق باطل. فقلّ لهم -يا محمد- أخبروني عن يقين وعلم بصحة هذا الذي حرّمتم، وأحلّتم؛ إن كنتم صادقين في دعواكم هذه؟!

وخلق الله تعالى من الأنعام ثمانية أزواج، ومنها الذكر والأنثى من الإبل والبقر؛ فمن الإبل: الجمل والناقة، ومن البقر: الثور والبقرة، فقلّ -يا محمد- لهؤلاء الذين حرّموا ما رزقهم

الله تعالى: أَحَرَّمَ اللهُ الذَّكَرَيْنِ؛ ذَكَرَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ؟ فليس هذا بقولكم. أَمْ حَرَّمَ أَنْتَنِيهِمَا؟ فليس هذا بقولكم أيضاً. فَلَسْتُمْ تَقُولُونَ بتحريم الذكور الخُلص، ولا الإناث الخُلص من الإبلِ والبقر. أَمْ تُحَرِّمُونَ ما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ أَنْثَى الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ ذَكَرٍ وَأُنْثَى؟ فَلَسْتُمْ تَقُولُونَ أيضاً بهذا القول. فَإِذَا كُنْتُمْ لَا تَقُولُونَ بِأَحَدِ تِلْكَ الْأَقْوَالِ الثَّلَاثَةِ؛ فَإِنَّ تَفْرِيقَكُمْ بَيْنَ بَعْضِ الذُّكُورِ وَبَعْضِ الْإِنَاثِ، وَبَعْضِ مَا فِي بُطُونِ الْأَنْعَامِ بِأَنْ تُحْلُوا بَعْضَهُ، وَتُحَرِّمُوا بَعْضَهُ؛ تَفْرِيقٌ بَاطِلٌ، أَمْ كُنْتُمْ -أَيُّهَا الْمَشْرُكُونَ- حَاضِرِينَ حِينَ وَصَّاكُمْ اللهُ تَعَالَى بِهَذَا الَّذِي تَقُولُونَ؟ فَهَذَا بَاطِلٌ أَيْضاً، فَلَا أَحَدٌ أَشَدُّ ظُلْماً مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ تَعَالَى؛ لِإِضْلَالِ النَّاسِ عَنِ الْحَقِّ بِغَيْرِ بُرْهَانٍ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُؤَقِّقُ لِلْحَقِّ هَوْلَاءُ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ.

قل -يَا مُحَمَّدٌ- لِلَّذِينَ حَرَّمُوا رِزْقَ اللهِ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ: لَا أَجِدُ فِيمَا أَوْحَاهُ اللهُ تَعَالَى إِلَيَّ شَيْئاً مُحَرَّمًا أَكْلَهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً، مَاتَتْ بِغَيْرِ ذِكَاةٍ شَرْعِيَّةٍ، أَوْ دَمًا مُسَالًّا، كَالَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الذَّبِيحَةِ عِنْدَ ذِكَايَتِهَا، أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ -وَيَدْخُلُ فِيهِ شَحْمُهُ- فَإِنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ، نَجَسٌ، وَلَا أَجِدُ فِيمَا أَوْحَاهُ اللهُ تَعَالَى إِلَيَّ شَيْئاً مُحَرَّمًا أَكْلَهُ -إِضَافَةً إِلَى مَا سَبَقَ- إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَذْبُوحًا لغيرِ اللهِ، فَذَكَرَ عَلَيْهِ غَيْرُ اسْمِهِ سُبْحَانَهُ؛ فَإِنَّهُ خَرُجَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى إِلَى مَعْصِيَتِهِ وَالْكَفْرِ بِهِ، فَمَنْ أَلْجَأَتْهُ الضَّرُورَةُ إِلَى أَكْلِ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْمَحَرَّمَاتِ الْأَرْبَعَةِ، غَيْرِ مُرِيدٍ التَّلَدُّدَ بِأَكْلِهَا، وَلَا يَتَجَاوَزُ مَا أَبَاحَهُ اللهُ لَهُ، فَيَأْكُلُ بِقَدَرٍ مَا يَدْفَعُ عَنْهُ الْهَلَاكَ، فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى غَفُورٌ لِمَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ، وَرَحِيمٌ بِعِبَادِهِ.

وَحَرَّمْنَا عَلَى الْيَهُودِ أَكْلَ كُلِّ حَيَوَانٍ لَهُ أَظْفَرٌ، كَالنَّعَامَةِ
وَالْبَطِّ، وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَ الْبَقَرِ وَالْعِزِّ، إِلَّا مَا عَلِقَ مِنْهَا
بِظُهُورِهِمَا، أَوْ مَا حَمَلَتْهُ الْأَمْعَاءُ، وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا
كَالْمَصَارِينِ، وَمَا اخْتَلَطَ مِنَ الشُّحُومِ بِالْعِظَامِ، كَشَحْمِ الْأَلْيَةِ
وغيره؛ فَنَالِكَ الشُّحُومَ حَلَالًا لَهُمْ، وَذَلِكَ التَّضْيِيقُ عَلَى الْيَهُودِ
كَانَ عِقَابًا لَهُمْ؛ لَظْلَمِهِمْ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فِي كُلِّ مَا نَقُولُ وَنَفْعَلُ
وَنَحْكُمُ بِهِ.

فَإِنْ كَذَّبَكَ -يَا مُحَمَّدُ- مُخَالِفُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ؛ فَقُلْ
لَهُمْ: رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ لِمَنْ أَطَاعَهُ، فَيَدْخُلْهُ جَنَّتُهُ؛ فَسَارِعُوا
إِلَى رَحْمَتِهِ، بِتَصَدِيقِ مُحَمَّدٍ فِيمَا جَاءَ بِهِ، وَقَدْ رَحِمَكُمْ رَبُّكُمْ؛ إِذْ
لَمْ يُعَاجِلْكُمْ بِعُقُوبَتِهِ، وَأَعَدَّ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ، وَأَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ رُسُلَهُ،
وَلَكِنْ عَذَابُهُ إِذَا وَقَعَ لَا يَرُدُّهُ شَيْءٌ عَنِ الَّذِينَ اكْتَسَبُوا الذُّنُوبَ
الْعَظِيمَةَ.

سَيَقُولُ الْمُشْرِكُونَ -اِحْتِجَاجًا بِالْقَدَرِ عَلَى تَرْكِ الْحَقِّ بَعْدَمَا
تَبَيَّنَ لَهُمْ:- لَوْ أَرَادَ اللَّهُ الْمَطْلَعُ عَلَى شِرْكِنَا، وَتَحْرِيمِ مَا حَرَّمَ
أَنْ نُفَرِّدَهُ بِالْعِبَادَةِ، وَنُحِلَّ مَا حَرَّمَ؛ لَمَا جَعَلْنَا لَهُ شَرِيكًا، وَلَا
أَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلِنَا، وَلَا حَرَّمَ مَا نَحَرَّمُهُ؛ لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُلْهِمَنَا
الْإِيمَانَ، أَوْ يَحُولَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، فَلَمَّا لَمْ يَفْعَلْ دَلَّ
عَلَى رِضَاهُ بِمَا نَحْنُ عَلَيْهِ! وَكَمَا كَذَّبَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مَا
جَنَّبَهُمْ بِهِ -يَا مُحَمَّدُ- مِنَ النَّهْيِ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَحْرِيمِ
غَيْرِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ؛ كَذَلِكَ كَذَّبَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ فَسَقَةِ الْأُمَمِ
الْمَاضِيَةِ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ أَنْبِيَائُهُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَلَمْ يَزَلْ هَذَا
التَّكْذِيبُ دَابَّهَ حَتَّى أَحْلَلْنَا بِهِمْ عِقَابَنَا، فَقُلْ -يَا مُحَمَّدُ- لِهَؤُلَاءِ
الْمُشْرِكِينَ: هَلْ عِنْدَكُمْ عِلْمٌ يَقِينٌ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَاضٍ عَنْكُمْ فِيمَا

أنتم فيه؟! إن الحقيقة أنكم تتبعون ظنونا مجردة بغير برهان، وتكذبون عليه.

قل -يا مُحَمَّدُ- لهؤلاء المُشركين: فَلِلَّهِ وَحْدَهُ الْحُجَّةُ الْقَاطِعَةُ
الَّتِي تُظْهِرُ الْحَقَّ، وَتَقْطَعُ الْعُدْرَ، وَتُبْطِلُ ظُنُونَكُمْ، فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَى هِدَايَتَكُمْ لَوْفَقَكُمْ أَجْمَعِينَ لِاتِّبَاعِ الْحَقِّ وَلَكِنَّ حُكْمَتَهُ تَقْتَضِي
تَوْفِيقَ مَنْ اخْتَارَ الْهَدَى فَاَمَّا وَقَبْلَ الْحَقِّ، وَخِذْلَانِ مَنْ اخْتَارَ
الْكُفْرَ عَنْ بَيْنَةِ فَجْدٍ وَاسْتَكْبَرَ.

قل -يا مُحَمَّدٌ- لهؤلاءِ المفتَرينَ على رَبِّهم: أَحْضَرُوا شُهَداءَكم الَّذينَ يَشْهَدونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكم ما حَرَّمَموه، فَإِنْ جَاؤُوكَ بِشُهَداءَ؛ فلا تَشْهَدْ معهم؛ لَأَنَّهُمْ كَذِبَةٌ، وشُهُودُ زورٍ، ولا تَتَّبِعْ أَهْواءَ هؤلاءِ القَوْمِ الَّذينَ كَذَّبوا بِوَحْيِ اللهِ تَعَالَى في التحريمِ، والتَّحليلِ، وكَفَرُوا باليَوْمِ الآخِرِ، وَهُم مَعَ ذَلِكَ يُشْرِكُونَ بِهِ.

قل -يا مُحَمَّد- لهؤلاء المشركين: هلمُّوا لأخبركم ما حَرَّمَ ربُّكم؛ إنه حَرَّمَ الشُّركَ به مطلقاً، وأمركم بالإحسان إلى الوالدين، وألا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ذُكُوراً وإِناثاً؛ لَفَقْرِكُمْ؛ فقد تَكَفَّلَ برزقِ الجميع، وأمرهم باجتناب كُلِّ خَصْلَةٍ سُوِّ شديدة الفُجْح، واجتناب وسائلها، ما كان منها علناً يراه النَّاسُ، أو مِن غير اِطِّلاعهم، ولا يَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ قَتْلَها؛ فَجَعَلها معصومة؛ إِلا بالطَّرِيقِ الْمُوجِبَةِ لِقَتْلِها شَرْعاً، وتلك الأُمُور المذكورة في الآية عَهْدَ بها إليكم ربُّكم؛ لَتَعْمَلُوها وتَقُومُوا بها.

ولا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلا بما يَكُونُ أَنْفَعُ لَهُ؛ فإذا بَلَغَ وَأَسْتَمَ منه حُسْنَ تَصَرُّفٍ، فادْفَعُوا إِلَيْهِ مالَه، وأَوْفُوا الْكَيْلَ والمِيزانَ بِالْعَدْلِ، وَمَنْ اجْتَهَدَ في ذلك، فأَخْطَأَ أو وَقَعَ مِنْهُ نَفْصٌ بعد بَدَلٍ

جُهِدْهُ؛ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ، فَقُولُوا الْحَقَّ بَيْنَهُمْ، وَاعْدِلُوا، وَلَوْ كَانَ الَّذِي يَتَوَجَّهُ الْحُكْمُ عَلَيْهِ قَرِيبًا لَكُمْ، وَأَوْفُوا بِوَصِيَّةِ اللَّهِ الَّتِي أَوْصَاكُمْ بِهَا، بِطَاعَتِهِ سُبْحَانَهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَاجْتَنَابَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ، وَهَذَا الَّذِي بَيَّنَّهُ اللَّهُ مِنَ الْأَحْكَامِ، عَهْدٌ بِهِ إِلَيْكُمْ لَتَتَذَكَّرُوهُ وَتَأْخُذُوا بِهِ، وَتَتَذَكَّرُوا عَوَاقِبَ أَمْرِكُمْ، فَتَنْزَجِرُوا.

وَهَذَا الَّذِي وَصَّاكُمْ بِهِ رَبُّكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - وَأَمَرَكُمْ بِالْوَفَاءِ بِهِ، هُوَ طَرِيقُهُ الْمَوْصِلُ إِلَيْهِ، وَإِلَى جَنَّتِهِ؛ جَعَلَهُ مَخْتَصِرًا لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ؛ فَاسْلُكُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا الطَّرِيقَ الْمَخَالَفَةَ لَهُ؛ فَتُفَرِّقَكُمْ عَنْ طَرِيقِهِ، وَقَدْ عَهَدَ بِذَلِكَ إِلَيْكُمْ؛ لَتَتَّقُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ. أَتَيْنَا مُوسَى الثَّوْرَةَ كَامِلَةً جَامِعَةً لِمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي شَرِيعَتِهِ؛ جَزَاءً عَلَى إِحْسَانِهِ فِي الْعَمَلِ، وَقِيَامِهِ بِطَاعَتِنَا، وَتَمَامًا لِنِعْمِنَا عَلَيْهِ، وَتَبْيِينًا لِكُلِّ مَا يُحْتَاجُ قَوْمَهُ إِلَى تَفْصِيلِهِ مِنْ دِينِهِمْ، وَهَدَايَةً لَهُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَرَحْمَةً بِهِمْ؛ فَلَعَلَّ قَوْمَهُ يُؤْمِنُونَ بِالْبَعَثِ؛ فَيَسْتَعِيدُوا لَذَلِكَ.

وَهَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِلَى مُحَمَّدٍ فِيهِ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ، فَمَنْ اتَّبَعَهُ؛ غَمَرَتْهُ الْبَرَكَاتُ، فَاجْعَلُوهُ إِمَامًا تَتَّبِعُونَهُ - أَيُّهَا النَّاسُ -، وَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى؛ فَتَنْجُوا مِنْ عَذَابِهِ.

أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ الْقُرْآنَ - يَا كُفَّارَ قُرَيْشٍ - قَطْعًا لِعُذْرِكُمْ؛ لِئَلَّا تَقُولُوا: لَمْ يُنَزَّلْ عَلَيْنَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ فَتَتَّبِعْهُ، وَإِنَّمَا الْحُجَّةُ عَلَى طَائِفَتَيِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اللَّتَيْنِ أُنْزِلَ عَلَيْهِمَا الثَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ، وَلَا نَعْلَمُ مَا يَفْرَوْنَ، وَلَمْ نُؤْمَرْ بِمَا فِيهِمَا.

وَلِئَلَّا تَقُولُوا أَيْضًا: لَوْ أَنَّا أَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابٌ كَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لَكُنَّا أَشَدَّ مِنْهُمْ اسْتِقَامَةً عَلَى الْحَقِّ، فَقَدْ جَاءَكُمْ

كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ؛ حُجَّةٌ
وَاضِحَةٌ عَلَيْكُمْ، وَهُدًى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَرَحْمَةٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، فَمَنْ
أَشَدُّ عُذْوَانًا مِمَّنْ كَذَّبَ بِحُجَجِ اللَّهِ، وَأَعْرَضَ عَنْهَا، وَصَرَفَ
النَّاسَ عَنْهَا؟ سَيَجَازِي اللَّهُ تَعَالَى مَنْ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنْهَا
بِالْعَذَابِ السَّيِّئِ.

هَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ فَتَقْبِضَ
أَرْوَاحَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ، أَوْ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ؛ لِلْفَصْلِ
بَيْنَ الْعِبَادِ، أَوْ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا؟ وَإِذَا طَلَعَتْ كَذَلِكَ
فَلَا يُقْبَلُ إِيْمَانُ كَافِرٍ، لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا مِنْ قَبْلُ، وَلَا تُقْبَلُ تَوْبَةٌ مِنْ
عَاصٍ، وَلَا عَمَلٌ صَالِحٌ مِنْ أَحَدٍ لَمْ يَكُنْ عَامِلًا بِهِ قَبْلَ طُلُوعِهَا،
قُلْ -يَا مُحَمَّدُ- لِلْمُشْرِكِينَ: انْتَظِرُوا وَقُوعَ مَا سَبَقَ، لَتَعْلَمُوا حِينَئِذٍ
الْمُحَقِّقَ مِنَ الْمُبْطِلِ، إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ذَلِكَ.

إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى وَفَارَقُوهُ، أَوْ تَشَتَّتُوا فِيهِ؛
فَأَصْبَحُوا فِرْقًا؛ فَأَنْتَ بَرِيءٌ مِنْهُمْ -يَا مُحَمَّدُ- وَمِمَّا هُمْ فِيهِ، إِنَّ
أَمْرَهُمْ وَمَصِيرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، ثُمَّ يُخْبِرُهُمْ سُبْحَانَهُ بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَهُ فِي الدُّنْيَا، وَيُجَازِيهِمْ.

مَنْ وَافَى رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْخَصْلَةِ الْحَسَنَةِ، الَّتِي كَانَ يَعْمَلُهَا
فِي الدُّنْيَا؛ فَلَهُ مِنَ الثَّوَابِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمَنْ وَافَى رَبَّهُ سُبْحَانَهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْخَصْلَةِ السَّيِّئَةِ، فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ مِثْلُهَا مِنْ غَيْرِ
مُضَاعَفَتِهَا، وَالْجَمِيعُ لَا يُظْلَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

قُلْ مُعَلِّيًا يَا مُحَمَّدُ: قَدْ أَنْعَمَ عَلَيَّ رَبِّي؛ بِأَنْ أُرْسَدَنِي وَوَفَّقَنِي
لِطَرِيقِ الْحَقِّ، الَّذِي لَا اعْوَاجَ فِيهِ، وَهُوَ دِينٌ قَائِمٌ ثَابِتٌ مُعْتَدِلٌ،
وَهُوَ شَرِيعَةُ إِبْرَاهِيمَ الْمُسْتَقِيمِ عَلَى الْحَقِّ، الْمَائِلِ عَنِ الضَّلَالَةِ،
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ.

قُلْ -يا مُحَمَّدٌ:- إِنَّ صَلَاتِي، وَذَّبْحِي، وَحَيَاتِي، وَوَفَاتِي، كُلُّ ذَلِكَ لِلَّهِ خَالِقِ الْعَالَمِينَ وَمَالِكِهِمْ وَمُدَبِّرِهِمْ.

لَا شَرِيكَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَبِذَلِكَ الْإِخْلَاصِ أَمَرَني رَبِّي، وَأَنَا عَبْدٌ مَأْمُورٌ، عَلَيَّ امْتِنَالُ أَمْرِهِ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُقَرَّبِينَ الْخَاضِعِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ.

قُلْ -يا مُحَمَّدٌ- لِهَؤُلَاءِ الْمَشْرُكِينَ: أَسْوَى اللَّهِ اتَّخَذُ رَبًّا، وَهُوَ خَالِقُ وَمَالِكُ وَمُدَبِّرُ كُلِّ شَيْءٍ؟! وما يَكْسِبُهُ الْمَرْءُ مِنَ الْآثَامِ لَا يَتَعَدَّى مِنْهُ شَيْءٌ إِلَى غَيْرِهِ، فَلَا تَجْنِي نَفْسٌ ذَنْبًا إِلَّا أُخِذَتْ بِهِ هِيَ وَحْدَهَا، وَلَا تَحْمِلُ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا مِنَ الْآثَامِ، ثُمَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى رَجُوعُكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ-، فَيُخَبِّرُكُمْ بِالَّذِي كُنْتُمْ تَخْتَلِفُونَ فِيهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَأَنْشَأَكُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ، تَخْلِفُونَهُمْ فِي الْأَرْضِ، جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَقَرْنَا بَعْدَ قَرْنٍ، وَجَعَلَ بَعْضُكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ، فِي الْأَرْزَاقِ وَالْأَخْلَاقِ وَغَيْرِهَا؛ لِيُخَبِّرَكُمْ فِي ذَلِكَ؛ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، إِنَّ رَبَّكَ -يا مُحَمَّدٌ- سَرِيعُ عِقَابِهِ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهُ، غَفُورٌ لِمَنْ اتَّبَعَ الْحَقَّ، رَحِيمٌ بِهِ سُبْحَانَهُ.

تُبَيِّنُ هَذِهِ الْحُرُوفُ الْمَقْطَعَةُ، إِعْجَازَ الْقُرْآنِ؛ حَيْثُ تُظْهِرُ عَجَزَ الْخَلْقِ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ، مَعَ أَنَّهُ مَرْكَبٌ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الَّتِي يَتَحَدَّثُونَ بِهَا !

هَذَا الْقُرْآنُ كِتَابٌ أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْكَ -يا مُحَمَّدٌ، فَلَا يَضِيقُ صَدْرُكَ مِنْ إِبْلَاغِهِ، أَنْزَلَهُ اللَّهُ؛ لَتَخْوِيفِ الْكَافِرِينَ، وَتَذْكِيرِ الْمُؤْمِنِينَ.

اتَّبِعُوا -أَيُّهَا النَّاسُ- الْقُرْآنَ الَّذِي جَاءَكُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ، وَلَا تَتَّبِعُوا شَيْئًا غَيْرَهُ؛ فَتَخْرُجُوا عَنِ الْحَقِّ إِلَى حُكْمِ آخَرِينَ تَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَتَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ، إِنَّ تَذَكُّرَكُمْ قَلِيلٌ لَا يُجِدِي شَيْئًا.

وكثيرًا ما أَهْلَكْنَا الْأُمَمَ السَّابِقَةَ، مِمَّنْ عَصَوْنِي، وَكَذَّبُوا رُسُلِي، فَدَمَّرْنَا بَعْضَهُمْ فِي بُيُوتِهِمْ لَيْلًا، وَجَاءَ الْعَذَابُ بِبَعْضِهِمْ نَهَارًا فِي وَقْتِ الْقِيلُولَةِ، فَاحْذَرُوا تَكْذِيبَ مُحَمَّدٍ؛ لَنَلَّا أَنْزَلَ بِكُمْ مِثْلَ ذَلِكَ.

فَمَا كَانَ قَوْلُ أَوْلَئِكَ الْمُهْلَكِينَ حِينَ جَاءَهُمُ الْعَذَابُ إِلَّا أَنْ اعْتَرَفُوا بِظُلْمِ أَنْفُسِهِمْ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى رَدِّ الْعَذَابِ عَنْهُمْ. فَلَنَسْأَلَنَّ الْأُمَمَ الَّذِينَ أَرْسَلْتُ إِلَيْهِمْ رُسُلِي سُؤَالَ تَوْبِيخٍ: مَاذَا عَمِلُوا فِيمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ، هَلْ أَطَاعُونِي، أَمْ عَصَوْنِي، وَلَنَسْأَلَنَّ رُسُلَهُمْ عَنْ تَبْلِيغِهِمْ لِرِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وَعَمَّا أَجَابَتْهُمْ بِهِ أُمَمُهُمْ.

فَلَنُخَبِّرَنَّ الْعِبَادَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ عِلْمٍ بِمَا قَالُوا، وَبِمَا عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا، وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ فِي أَيِّ وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ عَنْهُمْ، وَعَنْ أَعْمَالِهِمْ.

وَالْوِزْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَعْمَالِ الْخَلْقِ؛ يَكُونُ بِالْعَدْلِ، فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُ عَمَلِهِ الصَّالِحِ، بَأْنٍ رَجَحَتْ كِفَّةُ حَسَنَاتِهِ عَلَى سَيِّئَاتِهِ؛ فَأَوْلَئِكَ هُمُ النَّاجُونَ الْفَائِزُونَ.

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُ أَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ، فَارْجَحَتْ سَيِّئَاتِهِ؛ فَأَوْلَئِكَ أَضَاعُوا حَظَّ أَنْفُسِهِمْ مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ وَخَسِرُواهَا؛ لَتَكْذِيبِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَلَقَدْ هَيَّأْنَا لَكُمْ الْأَرْضَ - أَيُّهَا النَّاسُ - وَأَقْدَرْنَاكُمْ عَلَيْهَا، وَأَبْخْنَا لَكُمْ مَنَافِعَهَا، وَبَسَّرْنَا لَكُمْ فِيهَا مَا تَعِيشُونَ بِهِ؛ مِمَّا يَخْرُجُ مِنَ الْأَشْجَارِ وَالنَّبَاتَاتِ، وَغَيْرِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَشُكْرُكُمْ قَلِيلٌ عَلَى تِلْكَ النِّعَمِ!

ولقد خَلَقْنَا أَبَاكُم آدَمَ، ثُمَّ صَوَّرْنَاهُ بَشَرًا سَوِيًّا، ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ: اسْجُدُوا لِآدَمَ؛ إِكْرَامًا لَهُ، وَإِظْهَارًا لِفَضْلِهِ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ، لَمْ يَسْجُدْ لِآدَمَ؛ تَكْبِيرًا عَلَيْهِ، وَإِعْجَابًا بِنَفْسِهِ.

فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِإِبْلِيسَ: مَا مَنَعَكَ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ، حِينَ أَمَرْتُكَ بِهِ؟ قَالَ إِبْلِيسُ: مَنَعَنِي مِنْ ذَلِكَ أَنَّنِي أَفْضَلُ مِنْهُ؛ لِأَنَّكَ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ، وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ، وَالنَّارُ أَفْضَلُ مِنَ الطِّينِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِإِبْلِيسَ: فَاهْبِطْ مِنَ الْجَنَّةِ؛ فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَسْتَكْبِرَ فِيهَا عَنْ طَاعَتِي، فَاخْرُجْ، إِنَّكَ مِنَ الدَّالِيلِينَ الْحَقِيرِينَ.

قَالَ إِبْلِيسُ: أَخَّرَ مَوْتِي إِلَى أَنْ يُبْعَثَ الْخَلْقُ.

قَالَ اللَّهُ لِإِبْلِيسَ: إِنَّكَ مِنَ الْمُوَخَّرِينَ.

قَالَ إِبْلِيسُ مُخَاطَبًا رَبَّهُ: فَسَبَّبَ إِغْوَاكَ لِي، أَقْسِمُ بِكَ لِأَلْزَمَنَّ الْجُلُوسَ لِدُرِّيَّةِ آدَمَ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ الْقَوِيمِ.

ثُمَّ لَاتَيْنِ بَنِي آدَمَ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ، فَأَصْدَهُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَأَحْسَنُ لَهُمَ الْبَاطِلَ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ لَكَ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِإِبْلِيسَ: اخْرُجْ مِنَ الْجَنَّةِ مَذْمُومًا، مَطْرُودًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، أَقْسِمُ عَلَى أَنْ أَمْلَأَ جَهَنَّمَ مِمَّنْ اتَّبَعَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِكَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ: اتَّخِذْ أُنْتَ وَزَوْجُكَ حَوَاءَ الْجَنَّةِ مَنَزَلًا، وَكَلَا مِنْ أَيِّ مَكَانٍ فِيهَا، وَمِنْ جَمِيعِ ثِمَارِهَا، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ؛ فَتَصِيرَا مِمَّنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِمُخَالَفَةِ أَمْرِ رَبِّهِ. فَأَلْقَى إِبْلِيسُ لِآدَمَ وَحَوَاءَ قَوْلًا لِيُخْدَعَهُمَا بِهِ، فَيُظْهِرَ لَهُمَا عَوْرَاتِهِمَا، فَقَالَ لَهُمَا كَذِبًا: نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، لِنَلَّا تَكُونَا مَلَكَيْنِ، أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ فِي الْجَنَّةِ.

وَحَلَفَ لَهَا بِاللَّهِ إِنِّي نَاصِحٌ لَكُمَا فِي الْأَكْلِ مِنْ ثَمَرِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَاكُمَا اللَّهُ عَنْهَا.

فَخَدَعَهُمَا وَأَطَمَعَهُمَا بِالْقَوْلِ الْبَاطِلِ، فَلَمَّا طَعِمَ آدَمُ وَحَوَاءُ ثَمَرَ الشَّجَرَةِ، انْكَشَفَتْ عَوْرَتُهُمَا، وَجَعَلَ يَشْدَانِ عَلَى جَسَدِهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ؛ لِيَسْتُرَا عَوْرَاتِهِمَا، وَقَالَ اللَّهُ لآدَمَ وَحَوَاءَ، مُعَاتِبًا: أَلَمْ أَنُحْكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ؟ وَأَعْلَمَكُمَا أَنَّ إِبْلِيسَ عَدُوٌّ بَيْنَ الْعَدَاوَةِ لَكُمَا؟!!

قَالَ آدَمُ وَحَوَاءُ: يَا رَبَّنَا، أَسَأْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا، وَأَضَرَّرْنَا بِهَا بِمَعْصِيَتِكَ، وَبِطَاعَتِنَا عَدُوَّنَا وَعَدُوَّكَ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، وَتَرْحَمْنَا، لَنَكُونَنَّ مِنَ الْهَالِكِينَ.

قَالَ اللَّهُ لآدَمَ وَحَوَاءَ وَإِبْلِيسَ: اهْبِطُوا مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ أَنْتُمْ وَذُرِّيَّتُكُمْ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ قَرَارٌ عَلَى ظَهْرِهَا، وَبَعْدَ وَفَاتِكُمْ فِي بَطْنِهَا، وَلَكُمْ فِيهَا مَتَاعٌ تَتَنَفَعُونَ بِهِ إِلَى مَوْتِكُمْ.

وَقَالَ اللَّهُ: فِي الْأَرْضِ تَعِيشُونَ أَيَّامَ حَيَاتِكُمْ، وَتَكُونُ فِيهَا وَفَاتُكُمْ، ثُمَّ تُخْرَجُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ أَحْيَاءَ؛ لِيُجَازِيَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ.

يَا بَنِي آدَمَ، قَدْ أَلْبَسْنَاكُمْ مِنَ الثِّيَابِ، مَا يَسْتُرُ عَوْرَاتِكُمْ، وَمَا تَتَرَبَّصُونَ بِهِ، وَالتَّلْبُسُ بِتَقْوَى اللَّهِ؛ خَيْرٌ لَصَاحِبِهِ، وَذَلِكَ اللَّبَاسُ وَالرِّيَاسُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَى رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ؛ فَيَعْرِفُوا عَظَمَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَلِيَعْتَبِرُوا، وَيُوجِدُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ.

يَا بَنِي آدَمَ؛ لَا تُمَكِّنُوا الشَّيْطَانَ مِنْ خِدَاعِكُمْ بِتَزْيِينِهِ الْمَعَاصِيَ لَكُمْ، كَمَا خَدَعَ أَبَاكُمْ آدَمَ وَأُمَّكُمْ حَوَاءَ، فَأَخْرَجَهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ، وَنَزَعَ عَنْهُمَا مَا رَزَقَهُمَا اللَّهُ مِنَ اللَّبَاسِ؛ لِيَكْشِفَ لَهَا عَوْرَاتِهَا،

إِنَّ الشَّيْطَانَ يَرَاكُمْ هُوَ وَذُرِّيَّتُهُ، وَأَنْتُمْ لَا تَرَوْنَهُمْ، إِنَّا سَلَطْنَا
الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَفَّارِ، فَيَزِيدُونَهُمْ ضَلَالًا.

وَإِذَا فَعَلَ الْكَفَّارُ مَا يُسْتَقْبَحُ مِنَ الْأَفْعَالِ؛ مِثْلَ طَوَافِهِم بِالْكَعْبَةِ
عُرَاةً، قَالُوا: وَجَدْنَا آبَاءَنَا يَفْعَلُونَ هَذَا، وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهِ! فَقُلْ -يَا
مُحَمَّدُ-: إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ عِبَادَهُ بِقُبَائِحِ الْأَفْعَالِ، فَكَيْفَ تَزْعُمُونَ أَنَّ
اللَّهَ أَمَرَكَم بِهَا وَلَيْسَ لَدَيْكُمْ بَرَهَانٌ عَلَى ذَلِكَ؟!

قُلْ -يَا مُحَمَّدُ-: أَمَرَ رَبِّي بِالْعَدْلِ فِي حَقِّهِ وَحَقِّ عِبَادِهِ،
وَتَوَجَّهُوا فِي صَلَاتِكُمْ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، فِي أَيِّ مَسْجِدٍ كُنْتُمْ، وَادْعُوا
اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا خَلَقَكُمْ اللَّهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَأَوْجِدْكُمْ بَعْدَ أَنْ
كُنْتُمْ عَدَمًا؛ فَكَذَلِكَ تَعُودُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَحْيَاءً بَعْدَ مَوْتِكُمْ.
طَائِفَةٌ وَقَفَهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَيسَّرَ لَهَا أَسْبَابَ الْهَدَايَةِ، وَطَائِفَةٌ
وَجَبَتْ عَلَيْهَا الضَّلَالَةُ، بَعْدَ أَنْ بَيَّنَّ لَهَا الْهُدَى، فَلَمْ تَقْبَلْ بِهِ،
وَعَمِلَتْ بِأَسْبَابِ الْغَوَايَةِ، وَقَدْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ، فَأَطَاعُوهُمْ، وَمَعَ ذَلِكَ يَظُنُّ أَوْلَئِكَ الضَّالُّونَ أَنَّهُمْ مَهْتَدُونَ!
يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ مِنَ اللَّبَاسِ الْحَسَنِ، وَاسْتُرُوا
عَوْرَاتِكُمْ بِهِ عِنْدَ جَمِيعِ الْمَسَاجِدِ، فِي الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا، وَفِي
الطَّوَافِ وَالْإِعْتِكَافِ، وَغَيْرِهِ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا مِمَّا أَحَلَّلْنَاهُ، وَلَا
تُفْرِطُوا فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَلَا تَتَجَاوَزُوا حُدُودَ اللَّهِ؛ فَتُحَرِّمُوا
حَلَالَهَا، أَوْ تَتَنَاوَلُوا حَرَامَهَا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمَجَاوِزِينَ أَمْرَهُ،
الْمُسْتَكَثِرِينَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَغَيْرِهِ.

قُلْ -يَا مُحَمَّدُ- لَجَهْلَةِ الْعَرَبِ الَّذِينَ يَتَعَرَّوْنَ عِنْدَ طَوَافِهِم
بِالْكَعْبَةِ، وَيُحَرِّمُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَا أَحَلَّلْتُ: مَنْ الَّذِي حَرَّمَ عَلَيْكُمْ
زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي جَعَلَهَا لِعِبَادِهِ؟ وَمَنْ حَرَّمَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الْمَأْكُولَاتِ
وَالْمَشْرُوبَاتِ وَغَيْرِهَا، مِمَّا أَحَلَّهُ اللَّهُ تَعَالَى؟! قُلْ -يَا مُحَمَّدُ-: إِنَّ

الزَّيْنَةَ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، خَلَقَهَا اللَّهُ فِي الدُّنْيَا لِلَّذِينَ آمَنُوا،
وَيُشَارِكُهُمْ فِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا، وَهِيَ فِي الْآخِرَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ فَقَطْ،
كَهَذَا التَّفْصِيلِ الْوَاضِحِ الَّذِي فَصَّلْنَا لَكُمْ بِهِ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ،
وَبَيَّنَّا حُرْمَةَ كَشْفِ الْعَوْرَاتِ، وَإِبَاحَةَ الزَّيْنَةِ وَالطَّيِّبَاتِ؛ نُوضِّحُ
فِي هَذَا الْقُرْآنِ جَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ، لِلَّذِينَ يَفْهَمُونَ عَنْ اللَّهِ
آيَاتِهِ، وَيَنْتَفِعُونَ بِهَا.

قُلْ -يا محمد- لهؤلاءِ الْمُشْرِكِينَ: إِنَّ رَبِّي لَمْ يُحَرِّمْ مَا
تُحَرِّمُونَهُ، وَإِنَّمَا حَرَّمَ الذُّنُوبَ الَّتِي تَنَاهَتْ فِي الْفُجْحِ، مَا كَانَ مِنْهَا
عِلَاقَةً، أَوْ فِي خَفَاءٍ، وَحَرَّمَ رَبِّي الْمَعَاصِيَ الْمَتَعَلِّقَةَ بِالْفَاعِلِ
نَفْسِهِ، وَحَرَّمَ التَّعَدِّيَّ عَلَى النَّاسِ، وَحَرَّمَ رَبِّي اتِّخَاذَ شَرِيكَ فِي
عِبَادَتِهِ، دُونَ بَرَهَانَ، وَحَرَّمَ رَبِّي الْقَوْلَ عَلَيْهِ بِلا عِلْمٍ.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ مَكْدِبَةٌ زَمَنٌ مُحَدَّدٌ لِحُلُولِ الْعَذَابِ، فَإِذَا جَاءَ، هَلَكُوا،
وَلَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْ هَذَا الْوَقْتِ سَاعَةً، وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَنْهُ سَاعَةً.

يَا ذُرِّيَّةَ آدَمَ إِنَّ أَنْتَكَمُ الَّذِينَ أُرْسِلْتُمْ مِنْ جَنْسِكُمُ الْبَشَرِيِّ، يَتَلَوْنَ
آيَاتِ كُتُبِي، وَيُبَيِّنُونَ مَا فِيهَا، فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ مِنْكُمْ، فَتَرَكَ
الْمُحَرَّمَاتِ، وَعَمِلَ الطَّاعَاتِ؛ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ،
وَلَا يَحْزَنُونَ عَلَى الْمَاضِي.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا مِنْكُمْ بِآيَاتِي الَّتِي جَاءَتْ بِهَا رُسُلِي، وَاسْتَكْبَرُوا
فَاعْرَضُوا عَنِ التَّصَدِيقِ بِأَخْبَارِهَا، وَالْعَمَلِ بِأَحْكَامِهَا، أُولَئِكَ هُمُ
أَهْلُ النَّارِ الْمُلَازِمُونَ لَهَا، مَا كُنْتُمْ فِيهَا، لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا
لَا أَحَدٌ أَشْنَعُ ظَلَمًا مِمَّنْ افْتَرَى الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ، أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِ
اللَّهِ، أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمُ الْمَكْتُوبُ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ؛ مِنْ
الْأَرْزَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَجَالِ، إِلَى أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ لِقَبْضِ
أَرْوَاحِهِمْ، فَإِذَا جَاؤُوهُمْ قَالُوا: أَيْنَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهُمْ مَعَ اللَّهِ؛

فإنهم لم يحضروا لينقذوكم؟ فيقول الكفار لهم: ذهبوا عنا وتركونا، فلم ينفَعُونَا، فأقرَّ الكفار على أنفسهم بالكفر.

يقول الله يوم القيامة للكافرين: ادخلوا في زمرة جماعاتٍ على مثل صفاتكم من كفار الجن والإنس الذين مضوا قبلكم، فادخلوا جميعكم في النار، وكلُّما دخلت النار جماعةٌ منهم، شتمت جماعةٌ أخرى من أهل دينها، قد سبقتها في دخول النار، حتَّى إذا اجتمع فيها الأولون والآخرون من أهل الأديان الكافرة، قالت أخراهم دخولاً النار -وهم الأتباع- لأولاهم -وهم القادة المتبوعون: يا ربنا، هؤلاء الذين أضلونا عن سبيلك، فضاعف لهم العذاب، فقال الله: لكلٍ منكم ومنهم زيادةٌ عذابٍ، ولكنكم لا تعلمون مقدار ما أعدَّ الله منه.

قال المتبوعون للأتباع: لم تكن لكم مزيةً علينا، تُوجبُ أن يكون عذابنا أشدَّ من عذابكم؛ فنحن مُتشاركون في الكفر، وفي استحقاق العذاب، فدُفِّقوا؛ لكفركم ومعاصيكم.

إن الذين كذبوا بآياتي، وأعرضوا عن النصديق والعمل بها، لا يصعدُ لهم إلى الله قولٌ ولا عملٌ، ولا يُجاب لهم دُعاءٌ، ولا تُنزلُ إليهم بركاتٌ ورحماتٌ، ولا تُفتحُ لأرواحهم إذا ماتوا أبواب السماء، ولا يدخلون الجنة أبداً، كما لا يدخل البعيرُ في ثقب الإبرة، كذلك يُعاقب الله كل من كذب بآياته، واستكبر عنها. لهم فراشٌ من النار تحتهم، وغطاءٌ من النار يَغْشاهم فوقهم، وكذلك يجزي الله تعالى كلَّ ظالمٍ.

والذين آمنوا بالحق، وعملوا الصالحات -ونحن لا نُكَلِّفُ أحداً شيئاً إلا ما يقدِرُ عليه- هم أهل الجنة، ماكنون فيها أبداً.

وَقَلَعْنَا مِنْ صُدُورِ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْأُحْقَادَ وَالْبَعْضَاءَ وَنَحْوَ ذَلِكَ
مِمَّا كَانَ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، تَجْرِي أَنْهَارُ الْجَنَّةِ مِنْ تَحْتِ بَسَاتِينِهِمْ
وَقُصُورِهِمْ، وَقَالُوا حِينَ أُدْخِلُوا الْجَنَّةَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَنَا
لِلْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي أَكْسَبَنَا هَذَا النَّعِيمَ، وَمَا كُنَّا لِنُوقِفَ
لِذَلِكَ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ، لَقَدْ جَاءَتْنَا فِي الدُّنْيَا رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَمِنْ
ذَلِكَ الْوَعْدِ بِالْجَنَّةِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: تَلَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْتَيْتُمُوهَا مِيرَاثًا مِنَ
الْكُفَّارِ؛ لِإِيمَانِكُمْ وَطَاعَتِكُمْ، فَنِلْتُمْ بِذَلِكَ رَحْمَةً اللَّهِ فَأَدْخَلَكُمْوهَا،
وَأَسْكَنْكُمْ مَنَازِلَ الْكُفَّارِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ نَصِيبِهِمْ لَوْ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ.

وَنَادَى أَهْلُ الْجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ -بَعْدَ اسْتِقْرَارِ كُلِّ مِنْهُمْ فِي
مَنَازِلِهِمْ-: يَا أَهْلَ النَّارِ، قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا عَلَى السَّنَةِ رُسُلُهُ
مِنَ الثَّوَابِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا
وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي حَقًّا؟ قَالُوا: نَعَمْ،
فَنَادَى مُنَادٍ، بِصَوْتٍ عَالٍ بَيْنَ أَهْلِ النَّارِ وَأَهْلِ الْجَنَّةِ قَائِلًا: لَعْنَةُ
اللَّهِ مُسْتَقَرَّةٌ عَلَى الظَّالِمِينَ.

أُولَئِكَ الظَّالِمُونَ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا يُعْرِضُونَ عَنِ
الْإِسْلَامِ، وَيَمْنَعُونَ النَّاسَ مِنْ اتِّبَاعِهِ، وَيَسْعَوْنَ لِإِظْهَارِ طَرِيقِ
الْحَقِّ أَعْوَجَ؛ حَتَّى لَا يَتَّبِعَهُ أَحَدٌ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ جَاذِبُونَ مُكْذِبُونَ.
وَبَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَاجِزٌ يَمْنَعُ مِنْ وُصُولِ أَهْلِ النَّارِ إِلَى
الْجَنَّةِ، وَعَلَيْهِ رَجَالٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ مَعَ سَيِّئَاتِهِمْ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ
أَهْلَ الْجَنَّةِ بَبْيَاضٍ وَحُسْنٍ وَجُوهِهِمْ، وَيَعْرِفُونَ أَهْلَ النَّارِ بِسَوَادٍ
وُفُوحٍ وَجُوهِهِمْ، وَنَادَوْا أَهْلَ الْجَنَّةِ بِالنَّحِيَّةِ؛ وَهِيَ دَعَاءُ بِالسَّلَامَةِ
مِنَ الْآفَاتِ. وَأَهْلُ الْأَعْرَافِ لَمْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بَعْدُ، لَكِنَّهُمْ يَطْمَعُونَ
فِي دُخُولِهَا.

وَإِذَا صَرَفَ اللَّهُ عُيُونَ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ إِلَى جِهَةِ أَصْحَابِ
النَّارِ، فَأَبْصَرُوا عَذَابَهُمْ، دَعُوا اللَّهَ: يَا رَبَّنَا، لَا تَجْعَلْنَا مَعَ هَؤُلَاءِ
الظَّالِمِينَ.

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجَالًا مِنْ رُؤَسَاءِ الْكُفَّارِ
وَالْمُشْرِكِينَ - عَرَفُوهُمْ فِي الدُّنْيَا بِأَعْيَانِهِمْ، وَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ
بِعَلَامَاتِ أَهْلِهَا-، فَقَالُوا: مَاذَا نَفْعَكُمْ مَا كُنْتُمْ تَجْمَعُونَهُ فِي الدُّنْيَا
مِنَ الْأَمْوَالِ وَغَيْرِهَا، وَاسْتِكْبَارُكُمْ عَلَى الْخَلْقِ، وَتَكَبُّرُكُمْ عَنِ
الْحَقِّ؟

يَقُولُ أَهْلُ الْأَعْرَافِ لِأَوْلَئِكَ الْكُفَّارِ: أَهْؤُلَاءِ الضُّعَفَاءُ الَّذِينَ
أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ هُمْ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَنْ يَغُيَّبَ
بِهِمْ فَيَدْخُلَهُمْ جَنَّتَهُ؟! ثُمَّ يُقَالُ لِأَهْلِ الْأَعْرَافِ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، لَا
خَوْفَ عَلَيْكُمْ مِنْ آتٍ، وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ عَلَى مَا فَاتَ.

وَنَادَى أَهْلُ النَّارِ أَهْلَ الْجَنَّةِ، مُسْتَغِيثِينَ بِهِمْ مِمَّا أَصَابَهُمْ مِنْ
شِدَّةِ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ، فَقَالُوا: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ صُبُّوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ
أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ مِنْ مَأْكَلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ
حَكَمَ بِمَنْعِ ذَلِكَ مِنَ الْكَافِرِينَ.

أَوْلَئِكَ الْكَافِرُونَ هُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمُ الَّذِي دُعُوا إِلَيْهِ،
سُخْرِيَّةً وَلَعِبًا، فَاسْتَهْزَؤُوا بِهِ، وَخَدَعَتْهُمْ الدُّنْيَا بِزِينَتِهَا،
وَأَعْرَضُوا عَنِ الْآخِرَةِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: فِي هَذَا الْيَوْمِ
نَتَرَكُ أَوْلَئِكَ الْكُفَّارَ فِي جَهَنَّمَ عَطِشًا جِيَاعًا، كَمَا تَرَكُوا الْإِيمَانَ
وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ فِي الدُّنْيَا، وَجَحَدُوا بِآيَاتِنَا.

وَأُقْسِمُ أَنَا أَنْبِيَا بِالْقُرْآنِ إِلَى أَوْلَئِكَ الْكُفَّارِ وَقَدْ بَيَّنَّا فِيهِ جَمِيعَ
مَا يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى بَيَانِهِ، عَلَى عِلْمٍ مِنَّا بِذَلِكَ، وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ

تعالى هدى للحق ورحمة في الدنيا والآخرة للمؤمنين به المتبعين له.

هل يَنْتَظِرُ الْكُفَّارُ إِلَّا وَقُوعَ مَا أَخْبَرَ بِهِ الْقُرْآنُ؛ مِنْ مَجِيءِ يَوْمِ الْبَعْثِ، وَالْحِسَابِ، وَالْجَزَاءِ؟ وَحِينَ يَجِيءُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، يَقُولُ الَّذِينَ تَرَكَوا الْعَمَلَ بِالْقُرْآنِ نَادِمِينَ: قَدْ تَبَيَّنَ لَنَا الْآنَ أَنَّ رُسُلَ رَبِّنَا صَادِقُونَ فِي دَعْوَاهُمْ، فَكَذَّبْنَاهُمْ، فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيُنْقَذُونَا؟ أَوْ هَلْ يُمْكِنُنَا الرُّجُوعُ إِلَى الدُّنْيَا فَنَعْمَلَ صَالِحًا؟ قَدْ أَضَاعَ الْكُفَّارُ حَظَّ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الثَّوَابِ، وَأَهْلَكُوها بِالْعَذَابِ، وَغَابَ عَنْهُمْ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ أَوْ آلِهَةً لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلَمْ يَنْفَعُوهُمْ شَيْئًا. إِنَّ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ عَلَا عَلَى الْعَرْشِ عُلُوًّا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ. يُعْطِي اللَّهُ تَعَالَى بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهَارِ، وَيُعْطِي بِضَوْءِ النَّهَارِ ظِلْمَةَ اللَّيْلِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا سَرِيعًا، وَخَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُدَلَّلَاتٍ بِأَمْرِهِ، فَلِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ صِفَةُ الْخَلْقِ، وَلَهُ وَحْدَهُ الْأَمْرُ، فَيَأْمُرُ بِمَا يَشَاءُ، عَظَّمَ الْمَعْبُودُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَكَثُرَتْ بَرَكَاتُهُ وَخَيْرَاتُهُ، هُوَ الْخَالِقُ الْمَالِكُ، الْمُدَبِّرُ لَجَمِيعِ خَلْقِهِ.

ادْعُوا -أَيُّهَا النَّاسُ- رَبَّكُمْ وَحْدَهُ، أَذِلَّةً خَاضِعِينَ، مُخْفِينَ دُعَاءَكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُتَجَاوِزِينَ لِحُدُودِهِ، فِي الدُّعَاءِ وَغَيْرِهِ.

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِالشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي، وَغَيْرِ ذَلِكَ، بَعْدَ أَنْ أَصْلَحَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْضَ، وَادْعُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، مُخْلِصِينَ لَهُ، وَأَنْتُمْ فِي حَالِ خَوْفٍ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَطَمَعٍ فِي رِضَاهِ

وَتَوَابِهِ، إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَرْجُوءَةٌ لِلْمُحْسِنِينَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، الْمُحْسِنِينَ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ.

وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ بِنُزُولِ الْمَطَرِ، حَتَّى إِذَا حَمَلَتْ سَحَابًا مَثْقَلًا بِالْمِيَاهِ؛ سَفْنَا السَّحَابَ إِلَى أَرْضٍ مُجْدِبَةٍ، لَا نَبَاتَ فِيهَا، فَأَنْزَلْنَا فِيهَا ذَلِكَ الْمَاءَ، فَأَخْرَجْنَا بِسَبَبِهِ كُلَّ أَنْوَاعِ الثَّمَرَاتِ، وَكَمَا أَحْيَيْنَا الْبَلَدَ الْمَيِّتَ بِالْمَاءِ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ الثَّمَرَاتِ؛ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ أَحْيَاءً؛ وَلَعَلَّكُمْ بِمَا بَيَّنَّاهُ لَكُمْ تَتَذَكَّرُونَ الْحَقَّ وَتَتَّبِعُونَهُ.

وَالْأَرْضُ الطَّيِّبَةُ الثَّرْبَةُ، يَخْرُجُ نَبَاتُهَا - إِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ الْمَطَرَ - سَرِيعًا حَسَنًا طَيِّبًا، بِإِذْنِ اللَّهِ، وَالْأَرْضُ الرَّدِيئَةُ الثَّرْبَةُ، يَخْرُجُ نَبَاتُهَا - إِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ الْمَطَرَ - خُرُوجًا عَسِيرًا بَطِيئًا، لَا نَفْعَ فِيهِ، وَكَمَا نَوَّعْنَا الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى بَطْلَانِ الشِّرْكِ، وَاثْبَاتِ الْوَهْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعْثِ، وَغَيْرِهِ، نَنُوعُ أَيْضًا الْآيَاتِ فِي كُلِّ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَنَأْتِي بِهَا فِي أَسَالِيبٍ مُخْتَلِفَةٍ، لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ، فَهُمْ الْمُنْتَفِعُونَ بِتِلْكَ الْآيَاتِ.

أَقْسِمُ أَنَّنا بَعَثْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ لَهُمْ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ؛ فَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ غَيْرُهُ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ - إِنْ بَقِيتُمْ عَلَى ضَلَالِكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ؛ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

قَالَ الْأَشْرَافُ وَالرُّؤَسَاءُ الْمُتَكَبِّرُونَ عَنِ الْحَقِّ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، حِينَ دَعَاهُمْ إِلَى إِفْرَادِ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ: إِنَّا لَنَعْتَقِدُ أَنَّكَ فِي خَطَا، وَذَهَابٍ عَنِ الْحَقِّ بَيِّنٍ وَوَاضِحٍ.

قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ: يَا قَوْمِ، لَسْتُ فِي حَيَدٍ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، وَلَكِنِّي مُرْسَلٌ إِلَيْكُمْ مِنَ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ مَالِكُهُ وَمُدَبِّرُ شُؤْنِهِ.

وظيقتي أن أوصِلَ إليكم رسالةً ربي، وهي أمركم بتوحيده، ونهيكم عن الشرك به، ودَعَوُكُمْ لِطَاعَتِهِ، مبتغيا لكم بذلك الخَيْرَ في الدنيا والآخرة، وأَعْلَمُ بما أوحى اللهُ إِلَيَّ؛ من أسمائه وصفاته وأفعاله، كمَغْفِرَتِهِ لِلنَّائِبِينَ، وشِدَّةِ بَأْسِهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَعَدَمِ تأخير عذابه عنهم إذا جاء، وغير ذلك ما لا تَعْلَمُونَهُ.

هل تَعْجَبْتُمْ مُسْتَبْعِدِينَ أن يَجِئَكُمْ تذكيرٌ مِنَ اللهِ، عَبْرَ رَجُلٍ مِنَ الْبَشَرِ، تعرفونَ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ؟! أرسله لِيُخَوِّفَكُم عِقَابَهُ عَلَى كُفْرِكُمْ، وَلِتَجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ سَخَطِهِ وَعِقَابِهِ حَاجِزًا؛ بتوحيده، وطاعته، ولعل الله يرحمكم إن فعلتم ذلك.

فتمادى قومُ نُوحٍ في تكذيبِ رُسُولِهِمْ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ حَمَلَهُمْ معه في السَّفِينَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْ كُلِّ ذَكَرٍ وَأُنْثَى مِنْ أَصْنَافِ الْحَيَوَانَاتِ، وَأَعْرَفْنَا بِالطُّوفَانِ جَمِيعَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا، إِنَّهُمْ قَدْ عَمُوا عَنِ الْحَقِّ، فَلَمْ يُبْصِرُوهُ بِقُلُوبِهِمْ، وَلَمْ يَهْتَدُوا لَهُ وَأرسلنا إلى قبيلةٍ عادٍ أخاهم في النِّسَبِ هُودًا؛ لِيَدْعُوَهُمْ إِلَى الْحَقِّ، فَقَالَ لَهُمْ: يَا قَوْمِ، اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، لَيْسَ لَكُمْ مَعْبُودٌ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ غَيْرُهُ، أَفَلَا تَتَّقُونَ سَخَطَ اللَّهِ وَعِقَابَهُ إِنْ أَقْمَتمْ عَلَى شِرْكِكُمْ؟

قال الأشرافُ والرُّؤساءُ، الْمُتَكَبِّرُونَ عَنِ الْحَقِّ مِنْ قَوْمِ هُودٍ: إِنَّا لَنَعْتَقِدُ أَنَّكَ فِي حُمَقٍ وَخِفَّةِ عَقْلٍ؛ حَيْثُ تَدْعُونَا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَتَرْكِ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَإِنَّا لَنَنْظُنُّ أَنَّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فِي ذَلِكَ.

قال هُودٌ: يَا قَوْمِ، لَيْسَ بِي حُمَقٌ وَلَا خِفَّةُ عَقْلٍ، حِينَ دَعَوْتُكُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَنَبَذِ الشِّرْكِ، وَلِكِنِّي مُرْسَلٌ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ الْخَالِقِ الْمَالِكِ الْمُدَبِّرِ كُلِّ شَيْءٍ.

وظيفتي أَنْ أُوصِلَ إليكم رسالة الله، وهي أَمْرُكم بِتَوْحِيدِهِ، وَنَهْيُكم عَنِ الشِّرْكِ بِهِ، وَدَعْوَتُكم لَطَاعَتِهِ، وَأَنَا أَبْغِي لَكُمْ بِذَلِكَ الْخَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلَا أَغْشُكُمْ، أَمِينٌ أَبْلَغُ رِسَالَةَ اللَّهِ لَكُمْ كَمَا أَمَرْتُ.

هَلْ تَعْجَبْتُمْ مُسْتَبْعِدِينَ أَنْ يَجِئَكُمْ تَذْكِيرٌ مِنَ اللَّهِ، عَبْرَ رَجُلٍ مِنَ الْبَشَرِ، تَعْرِفُونَ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ؛ لِيُخَوِّفَكُم عِقَابَ اللَّهِ عَلَى كُفْرِكُمْ؟ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ بِأَنْ اسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ هَلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ، وَقَدْ خَصَّكُمْ عَلَى النَّاسِ بِزِيَادَةِ الطَّوْلِ، وَقُوَّةِ الْأَبْدَانِ، فَاذْكُرُوا نِعَمَ اللَّهِ الْكَثِيرَةَ، وَاشْكُرُوهُ؛ بِطَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ؛ لَعَلَّكُمْ تَتَالَوْنَ النِّجَاةَ وَالْفَوْزَ.

قَالَتْ عَادٌ لِهَوْدٍ: أَجِئْتَنَا كَيْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَتْرَكَ مَا كَانَ يُعْبَدُ آبَاؤُنَا؟! لَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ، فَهَاتِ مَا تَعِدُّنَا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِي دَعْوَاكَ.

قَالَ هُوْدٌ لِقَوْمِهِ: قَدْ اسْتَوْجَبْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ وَغَضَبَهُ فَهُوَ وَاقِعٌ بِكُمْ لَا مَحَالَةَ، أَتُخَاصِمُونَنِي فِي هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ آلِهَةً، وَهِيَ مُجَرَّدُ أَسْمَاءٍ اخْتَلَقْتُمُوهَا، وَلَا حَقِيقَةَ لَهَا، وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَكُمْ حُجَّةً عَلَى عِبَادَتِهَا؟! فَانظُرُوا مُتَرَقِّبِينَ وَقُوعَ عَذَابِ اللَّهِ الَّذِي وَعَدْتُكُمْ بِهِ، إِنِّي أَتَرَقَّبُ مَعَكُمْ ذَلِكَ.

فَأَنْجَيْنَا هُوْدًا وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ بِسَبَبِ رَحْمَتِنَا لَهُمْ، وَاسْتَأْصَلْنَا بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِنَا مِنْ قَوْمِ هُوْدٍ، فَلَمْ نُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ، وَبِرَسُولِهِ هُوْدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَأَرْسَلْنَا إِلَى قَبِيلَةِ ثَمُودَ أَخَاهُمْ فِي النَّسَبِ صَالِحًا؛ لِيَذْعُبَهُمْ إِلَى الْحَقِّ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، لَيْسَ لَكُمْ مَعْبُودٌ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ غَيْرَهُ، وَقَدْ جَاءَتْكُمْ حُجَّةٌ وَاضِحَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، عَلَى صِدْقِ

دعواي، وهي هذه النَّاقَةُ الشَّرِيفَةُ، جعلَها اللهُ تعالى آيَةً عَظِيمَةً، مُقْنِعَةً لَكُمْ، فَاتْرُكُوهَا تَرَعَى فِي أَرْضِ اللهِ، وَلَا تَتَعَرَّضُوا لَهَا بِأَيِّ أَدَى؛ وَإِلَّا جَاءَكُمْ عَذَابٌ مُؤْلِمٌ.

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ؛ حَيْثُ اسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ هَلَاكِ عَادَ، وَأَسَكَّنَكُمْ فِي أَرْضِ الْجُبْرِ -بَيْنَ الْجَبَالِ وَالشَّامِ- تَبْنُونَ الْقُصُورَ فِي الْأَمَاكِنِ الْمُسْتَوِيَةِ الْمُنْخَفِضَةِ مِنْهَا، وَتَأْخُذُونَ مِنْ أَجْرِهَا وَطِينِهَا، وَتُؤَسِّسُونَهَا بِالْحِجَارَةِ، وَتَنْقُبُونَ صُخُورَ الْجِبَالِ، فَتَكُونُ لَكُمْ فِيهَا مَسَاكِنُ أُخْرَى، فَادْكُرُوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُمْ، وَاشْكُرُوا اللهَ عَلَيْهَا؛ بِطَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَحَدِّهِ، وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، بِالشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي.

قَالَ الْأَشْرَافُ وَالرُّؤَسَاءُ، الْمُتَكَبِّرُونَ عَنِ الْحَقِّ مِنْ قَوْمِ صَالِحٍ، لِلْمُسْتَضْعَفِينَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ: أَتَعْلَمُونَ يَقِينًا أَنَّ صَالِحًا رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ إِلَيْنَا؟ فَأَجَابَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ: إِنَّا بِمَا أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ صَالِحًا مِنَ الْحَقِّ، مُؤْمِنُونَ.

قَالَ الْمُتَكَبِّرُونَ مِنْ قَوْمِ صَالِحٍ: إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، جَادِدُونَ.

فَقَتَلَ كَفَارُ ثَمُودَ النَّاقَةَ، وَتَمَرَّدُوا عَلَى امْتِنَالِ أَمْرِ رَبِّهِمْ، وَغَلَّوْا فِي بَاطِلِهِمْ، وَقَالُوا: يَا صَالِحُ، هَا نَحْنُ قَدْ قَتَلْنَا نَاقَةَ اللَّهِ، فَعَجِّلْ لَنَا بِمَا نَعِدُنَا مِنْ عَذَابِ اللهِ، إِنْ كُنْتَ حَقًّا مِنْ رُسُلِ اللهِ. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ، الَّتِي تَزَلَزَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ شِدَّتِهَا، فَصَارُوا فِي بِلَدِهِمْ صَرَعَى، لَا صَاقِينَ بِالْأَرْضِ.

فَانصَرَفَ صَالِحٌ عَنْ قَوْمِهِ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ، وَقَالَ مَوْخًا لَهُمْ: لَقَدْ أَدَيْتُ إِلَيْكُمْ جَمِيعَ مَا أَمَرَنِي اللهُ تَعَالَى بِأَدَائِهِ، وَأَرَدْتُ لَكُمْ الْخَيْرَ،

واجْتَهَدْتُ فِي هِدَايَتِكُمْ، وَلَكِنَّكُمْ تَكَرَّهَوْنَ النَّاصِحِينَ؛ فَلَمْ تَنْتَفِعُوا
بِنُصْحِي.

واذْكُرْ -يا مُحَمَّدٌ- لَوْطًا حِينَ قَالَ لِقَوْمِهِ: أَتَفْعَلُونَ الْفِعْلَةَ
الشَّنِيعَةَ الشَّدِيدَةَ الْقُبْحِ، وَهِيَ إِتْيَانُ الذُّكُورِ فِي الْأَدْبَارِ وَلَمْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ قَبْلَكُمْ؟

إِنَّكُمْ -أيُّهَا الْقَوْمُ- تَأْتُونَ الرِّجَالَ فِي أَدْبَارِهِمْ؛ رَغْبَةً مِنْكُمْ،
وَتَتْرَكُونَ إِتْيَانَ النِّسَاءِ! وَلَا عَذْرَ لَكُمْ فِي ذَلِكَ، إِنَّمَا أَنْتُمْ قَوْمٌ
تَتَعَدُونَ حُدُودَ اللَّهِ تَعَالَى.

وما كَانَ رَدَّ قَوْمِ لُوطٍ حِينَ نَهَاَهُمْ عَنْ تِلْكَ الْفَاحِشَةِ؛ سِوَى أَنْ
قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَخْرَجُوا لُوطًا وَأَهْلَهُ مِنْ قَرْيَتِكُمْ؛ لِأَنَّهُمْ
يَتَنَزَّهُونَ عَمَّا نَفَعَهُ!

فَأَنْجَيْنَا لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَهْلَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، إِلَّا زَوْجَتَهُ
الْكَافِرَةَ؛ كَانَتْ مِنَ الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ.

وَأَمْطَرْنَا عَلَى كُفَّارِ قَوْمِ لُوطٍ حِجَابَةً، مِنْ طِينٍ شَدِيدِ
الْحَرَارَةِ، فَانْظُرْ -يا مُحَمَّدٌ- إِلَى آخِرِ أَمْرِ أَوْلَئِكَ الْمُجْرِمِينَ،
أَخْزَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَهْلَكَهُمْ.

وَأَرْسَلْنَا إِلَى قَبِيلَةِ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ فِي النَّسَبِ شُعَيْبًا؛ لِيَدْعُوَهُمْ
إِلَى الْحَقِّ، فَقَالَ لَهُمْ: يَا قَوْمُ، اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ؛ لَيْسَ لَكُمْ مَعْبُودٌ
يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ غَيْرُهُ، قَدْ جَاءَكُمْ حُجَّةٌ وَاضِحَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، عَلَى
صِدْقٍ دَعَايَ، فَاتِمُّوا لِلنَّاسِ كَيْلَ الْمِكْيَالِ، وَوَزْنَ الْمِيزَانِ، وَلَا
تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِالشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي وَظَلَمِ النَّاسِ، بَعْدَ أَنْ
أَصْلَحَهَا اللَّهُ تَعَالَى، إِنَّ هَذَا الَّذِي أَمَرْتُكُمْ بِهِ أَنْفَعُ لَكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ حَقًّا.

وَلَا تَجْلِسُوا بِكُلِّ طَرِيقٍ تُهْدَدُونَ النَّاسَ بِالْقَتْلِ أَوِ الْعَذَابِ، إِنْ
لَمْ يُعْطَوْكُمْ أَمْوَالَهُمْ، أَوْ إِنْ أَرَادُوا الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَاتَّبَاعَ شُعَيْبٍ،
تَمْنَعُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَتَصْرِفُونَهُمْ عَنْ اتِّبَاعِ نَبِيِّهِ،
وَتَوَدُّونَ أَنْ تَكُونَ سَبِيلُ اللَّهِ مَعُوجَةً؛ اتَّبَاعًا لَأَهْوَائِكُمْ، وَادْكُرُوا
حِينَ كُنْتُمْ قَلِيلِي الْعَدَدِ، فَكَثَّرَكُمْ اللَّهُ، فَاشْكُرُوهُ وَأَخْلِصُوا لَهُ
الْعِبَادَةَ، وَانظُرُوا إِلَى آخِرِ أَمْرِ الَّذِينَ أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ، مِنْ
الْأُمَّمِ قَبْلَكُمْ؛ فَقَدْ حَلَّ بِهِمُ الْعَذَابُ.

وَإِنْ كَانَتْ جَمَاعَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِمَا أَرْسَلَنِي اللَّهُ بِهِ؛ مِنْ تَوْحِيدِهِ،
وَتَرَكِ الْفَسَادَ فِي أَرْضِهِ، وَجَمَاعَةٌ أُخْرَى لَمْ يُؤْمِنُوا بِذَلِكَ-
فَانْتَظِرُوا إِذَنْ حُكَّمَ اللَّهُ بَيْنَنَا، وَاللَّهُ خَيْرُ مَنْ يَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِهِ
الْمُخْتَلَفِينَ.